

## مضاض ومى

الحارث بن مضاض الجرهمى أسطورة عاشت ثلاثمئة عام ، مائة منها ملكا على مكة وباقى عمره تائها ضائعا يجول هنا وهناك بلا هدف فيما يشبه أسطورة اليهودى التائه . ولن أحدثك عنه هنا وإنما أنا أريد أن أحدثك عن قصة حكاها هو لأبياد بن نزار بن معد بن عدنان ، وحكاها أباد ليقص قصة الثروة التى جاءت اليه . . والقصة طويلة تبدأ حين يلتقى أباد بالجرهمى التائه ويظلان فى جولاتهم ، والجرهمى يقص له قصة كل مكان يصلان اليه ويحكى له حكايته ولماذا سمي بما يحمل من اسم . . وهو فى خلال هذا يورد مجموعة من أجمل الأساطير وارقها وأكثرها شاعرية وجمالا ، بل ومن أكثرها دلالة على عقلية الشعب العربى وفهمه للحياة والمثل والسلوك . . الى أن يصلنا فى رحلتها الى مكان اسمه موطن الموت ، وهنا يسأل الجرهمى صاحبه أيدرى سر تسمية هذا الموضع بموطن الموت فيقول صاحبه : لا . . فيبدأ الجرهمى حكاية جديدة أحب أن أوردها لك محتفظا بلغة راويها وهب بن منبه مختصرا منها بعض الشيء ، وهى بعد فى صفحة ١٨٨ من طبعة حيدر أباد لكتاب التيجان . .

\* \* \*

قال الجرهمي : نعم يا بنى انه لما شب مضاض ابن أخى عمرو الملك ، لم يكن بمكة ولا ما والاها أجمل منه . . وكان من بنات عمه من بيت الملك جارية تسمى ( ميا ) بنت مهليل بن عامر ، وكانت معه في نسق واحد ، وكانت أجمل من رآته العيون . . ففتن بها وفتنت به ، وشب معها وشبت معه في حى واحد ، وضان مئزره عنها . . فلما بلغ بها الهوى مبلغه وحذرا من الفضيحة أو السقم أو الموت بعثا الى فشكوا ما نزل بهما من شوق بعضهما الى بعض ، فأرسلت الى مهليل وأعلمته ما كان منهما . . فقال لى : أيها الملك أنت وليهما افعل بهما برايك وزوجها منه . .

قال الجرهمي: وقد هجم علينا الشهر الاصم (رجب) وكنا لا نحدث فيه حدثا غير العمرة والطواف حتى ينسلخ ، قلت له يا مهليل : ينصرف رجب وافعل . .

واعتمر مضاض وطاف ، وبلغ ذلك ( ميا ) فأقبلت تعتمر وتطوف متنكرة غيرة على مضاض ، ومضاض لا يعلم بمكانها . . وكان قبيس بن سراج من رهط حثير في جرحهم قد رأى ( ميا ) فهويها وهى لا تعلم ، ومضاض لا يعلم ، وكان قبيس يراعى أحوال ميا ، فلما بلغه أنها اعتمرت خرج الى الطواف ليقضى لباتته من النظر اليها . . فكانت ميا تطوف وتراعى أحوال مضاض ومضاض لا يعلم بذلك ، وكان قبيس يطوف فى اثر ميا وهى لا تعلم بذلك . .

وكانت رقية بنت البهلول الجرهمي تطوف واليوم قائظ ،  
فعطشت عطشا خافت منه على نفسها الموت ، واحتشمت أن  
تف لأهل السقاية وسدنة البيت من جرهم .. فلما أبصرت  
مضاضا ناديت به لشبيته ، فقالت يا مضاض اسقني جرعة من  
ماء فاني أخشى أن أموت ظمأ . فناولها ، فرأته مى حين ناول  
رقية الماء ، فاشتعل قلبها غيرة فسقطت مغشيا عليها وجعلت  
ترعد لا تدري ما هي فيه ، ونظر اليها الحجيج فقبل لهم  
عرضت ..

ثم أدركت ميا نفسها فقامت فلم تستطع الطواف وولت  
الى منزلها .. وكان منزل أبيها مهليل في سفح جبل مكة فأتت  
اباه فقال لها : يا الحجج يا بنية افترق .. فقالت له : لم يفترق  
الحجيج يا أبة ، ولكن الموت لا يكتم واليك شكواى واستعانتى  
لأنك عمادى ورجائى .. قال : فما لك يا بنية .. قالت :  
انصدع قلبي صدعا لن يلتئم بعدها صدعة .. قالت : يا أبة  
ان مضاضا ابن عمى دعا قلبي فأجابه ، فلما أجابه قذف الهوى  
خلف النوى .. قالت له : رأيته يلاحظ رقية بنت البهلول ،  
وسقاها ماء ففارق روحى جسمى أسرع من طرفة عين ، ثم  
تداركت امرى ، ورأيت انه بدلّ حسبا بحسب ، وخطرا بخطر ،  
ولم يبلغ والله خطر البهلول مهليل بن عامر ، ولا رقية بنت  
البهلول ميا بنت مهليل بن عامر .. قال لها أبوها : صدقت ،  
لا ورب الكعبة ما يكون ذلك .. قالت له : يا أبة لن والله أقيم  
بموضع يكون فيه مضاض بن عمرو أبدا ، وانى راحلة الى

أخوالى جسر بن قين .. فقال لها : لك ذلك يا بنية ، وأنشأت  
تقول :

مضاض غدرت الحب والحب صادق

وللحب سلطان يعز اقتداره

غدرت ولم أغدر وللعهد موثق

وليس فتى من لا يقر قراره

أبيت أقاسى النجم والليل دامس

وللنجم قطب لا يدور مداره

إذا غاب لم أشهد وكان محله

محلّى ودارى حيثما كان داره

إذا هاج ما عندى لأول غيرة

علاه اشتعال ما يطاق استعاره

قال فى جرهمى : وأتاها قبيس بن سراج وأنشأ يبيس لها أخبارا

ليفرق بينها وبين مضاض .. وقال لها : يامى رأيت عجبا ..

قالت : ما هو ؟ قال لها : رأيت مضاضا واضعا كفيه على قرون

رقية بنت البهلول فى الطواف ، وهو يدافع عنها أهل الطواف

سانحا وبارحا ، ثم استسقته ماء فناولها بيده فشربت وناولته ،

فأنشأ مضاض يقول .. قالت : وما الذى قال يا قبيس ؟

قال لها :

رقية قلبى قد تبين صدعة

وللحب منى شاهد ودليل

رأيت الهوى يهوى وللوصول واصل  
فهل لك أن يلقي الخليل خليل

قال : فأجابته رقية فقالت :

أصون الهوى والطرف منى كأنم  
ولا يعلمون الناس إذ ذاك ما دأى  
سوى اننى قد نزت منك بنظرة  
تجرعت عذب الحب منه مع الماء

فالتمستها حمية قول قبيس وجعلت تقبل بين خيام الحى مرة  
وتدبر أخرى وهى لا تعلم ما هى فيه .. ثم قالت لابيها : نذرت  
لله نذرا يا أبه لنرحلن غدا .. قال لها أبوها : نعم ..

قال الجرهمى : وان رجلا من أهل الحى بلغ مضاضا فأعلمه  
بما قال قبيس وبما قالت مى ، فركب فرسه وأخذ سيفه وخرج  
يريد قتل قبيس .. وأنذر قبيس فخرج هاربا فى البيداء ، فما  
أدرى أى أرض انطوت عليه الى يومنا هذا ..

فلما لم يجد مضاض من قبيس أثرا وأعجزه هربا رجع الى  
مى وأصاب أهل الحى يحتملون ، وأصاب مى راكبة على نجيب  
فى هودجها فقصدها وقال : يا مى أعيذك بالله أن تغدرى من لم  
يغدرك ، وهذا موئفى بين يديك فجودى لمن لم يجترم جرما :

يعشى عن الناس لحظ طرفى      وعنك يامى غير عاشى  
اتهجرينى بغير ذنب      وتقتلينى بقول واشى

فولت عنه وعيناه تغرورقان دموعا ، وتجهمته وزحفت غضبي  
ونمادى الحى للرحلة ، وافترق الحى من سفح الجبل ..

قال الجرهمى : فمضى حتى أتى مكة فغلب عليه الهوى ،  
ورجا منها عطفًا ، فتعرض لها قائلا :

علام قبست النار يا أم غالب

بنار قبيس حين هاجتك ناره

على كبد حرى وأنت عليمه

بغيب رفيق لا يبين ضمارة

سألتك بالرحمن لا تجمعى هوى

عليه وهجرانا وحبك جاره

فإن لم يكن وصل فلفظ مكانه

اليه والا موطن الموت داره

فولت عنه وتجهمته وقالت له : والله لا القاك بها أبدا ..

فولى الى صاحبيه وهما أبناء عمه وقال : والله لا أشرب بعدها

ماء أبدا .. وولى وأنف أن يدخل مكة ، ومضى معه صاحباه

يستعطفانه على شرب الماء فأبى لهما ، فجال حتى غلب عليه

النعطش ، وانصدع قلبه فى صدره لما خامره اليأس ، حتى بلغ

هذا الموضع ففشييه الموت ، فأناخ ناقته وأخذ ابن عمه رأسه

وجعله فى حجرة وقال له : قصفك الدهر يا مضاض .. ففتح

عينيه وقال : قصفنى قبيس ..

قال الجرهمى : ثم مات ، وقفلت أنا من غزواتى فأصبته

ميتا ، فحفرت له ضريحا فى هذه الصخرة ..

أما مى فقد لقيت رقية بنت البهلول ، فقالت لها رقية :  
يا مى ، ما كان من شأنك ومضاض .. ؟ فأعلمتها ، فقالت لها :  
ظلمتني يا مى ، بالله ما كان بينى وبينه قط سبب ، ولا كلمته غير  
استسقائى منه الماء ، ثم ما رأيته بعدها الى يومى هذا ..  
قالت لها مى : فهل كان منك اليه شعر ، ومنه اليك شعر ؟  
قالت لها : والله ما كان بينى وبينه كلمة غير استسقائى الماء  
ايه .. واتاها من علم أمر قبيس وما دس بينهما فندمت وبعثت  
اليه فلم تجده ، وتعاضم شوقها لما علمت من كفه بها وبراءته ..  
فبينما هى تسأل من لقيه اذ نعى اليها فتوارت عن الحى ،  
وتبعثها جارية من بنات عمها كانت مؤانسة لها مطلعة على  
أسرارها ، فوجدتها ساكئة تنظر يمينا وشمالا كأنها جنت ..  
قالت لها : يا مى أراك هبلاء وقد مات مضاض .. قالت لها :  
قسوة أدركتني منعتني الدمع ، وفي الدمع راحة لو أصبت اليه  
سبيلا .. فلما سمعت نساء الحى ينتحبن وعلت أصواتهن أجابها  
اندمع . فبكت وأنشأت تقول :

يا موطن الموت الذى فيه قبره

سقتك الغوادي الساريات الهوامع

ويا ساكنا بالدوحتين مغيبا

لان طمرت عن الف فالفك تابع

قال الجرهمي : وآلت على نفسها أن لا تشرب ماء ،

فأقامت يومين وليلتين ، فلما كان اليوم الثالث ولا احد يعلم بها

غير سلمى غشيها الموت مع الليل ، فولت الى الربوة وأتبعها

سلمى ، فلما بلغت أعلى الربوة سقطت .. قالت سلمى :  
فوضعت يدي على فمها فوجدته كالحجر الصلد ، فرفعت رأسها  
الى بلسان غليظ ، وصوت خفى ، فقالت بكلام ضعيف لا أكاد  
أبينه : ( قولى لآبى يذفننى بالدوحتين بجوار مضاض ) ..

\* \* \*

أحسب أن قصة ( مضاض ومى ) التى نقلتها اليك من  
كتاب وهب بن منبه تنقف كالسؤال الحائر أمام الذين زعموا أن  
العربى لم يعرف من صور الحب الا حب المادة الجسدة ، وأنه  
لم يعرف من المرأة الا مواضع الاثارة الجنسية فيها دون ماتعلق  
بالمرأة كروح ملهم ، ولا بها كرمز جميل عفيف ..

وأحسب أن الذين أخذوا من الشعر الجاهلى ، أو بمعنى  
أصح ما جاءهم من هذا الشعر ، صورة المرأة فى الجاهلية  
يحتاجون الى قليل من النظر فى هزم القصة وأمثالها ليدركوا  
أن ثمة صورة خادعة لا تمثل الحقيقة قد رسبت فى أذهانهم ..  
وأحسب أنهم لو قرنوا هزم القصة التى تأتى من عصر  
جاهلى سحيق بقصص متأخرة كقيس وليلى ، وقيس ولبنى ، بل  
لو قرنوها بقصص جاءت بعدها فى الزمن حتى دخلت فى قلب  
العصر الأموى كقصص جميل وقصة كثير ، لأدركوا أن ما يعرفونه  
عن حب العربى للمرأة لا يمثل الا جانبا واحدا من جوانب عاطفة  
العربى ، ولأحسوا أن الجاهلى الذى نظروا اليه نظرتهم الى  
بدوى جاهل خشن أقرب الى التوحش ، هو وحده لا يمثل الا  
جانبا واحدا من حياة العصر ، وأن هناك جانبا آخر أهملوه حتى

وهم يزون صوره واضحة جليلة فى تلك المثل الرائعة من الحب العفيف والهوى الخلاق الذى يصل الى درجة من الرفعة والسمو قل ان نجد نظيرها فى غير اكثر الامم عراقة وأصاله فى دنيا الابداع الفنى والخلق الادبى ..

وقصة ( مضاى ومى ) بعد هذا كله ، صورة انسانية نابضة بالحياة فى معظم الآداب العالمية فانت تراها فى ( روميو وجولييت ) وانت تراها فى ( بول وفرجينى ) .. اعنى أنك ترى الخصائص العامة المشتركة موجودة فى كل الآداب العالمية ، ولكنك هنا لن تخطئ الخصائص العربية تتحكم فى أسلوب القصة وشخصيات أبطالها وطريقة سير الاحداث فيها .. فالأمور فى هذه القصة تسير فى وضوح النهار ، فى شجاعة وقوة لا تكاد تجدها فى مثيلاتها .. فحينما يبلغ الهوى بالحببيين مبلغه يذهبان من فورهما الى الملك حيث يقصان عليه قصة هواهما فى صراحة وجراة .. والملك يرسل الى أبى الفتاة يسأله رايه ، ويستتر الرأى عند الجميع على زواج الحببيين كحل سعيد سليم .. فليس ثمة خفاء ولا استتار ، وليس ثمة خوف أو ظلام وانما وضوح تبرره عفة الحب وعذريته ..

وحينما تدخل المصادفة لتلعب دورها فى القصة لتحول من مجراها ، تنبنى هذه المصادفة على أسس من ظروف المجتمع العربى ومعتقداته ومثله . فشهر رجب أو الشهر الاصم يقبل ، والعرب لا يعرفون فيه غير العمرة والطواف .. وهكذا يتأجل

الزواج أولا ، ثم تحدث القطيعة ثانيا . . فلا مجال لمى كى ترى حبيبها الا أن تراه وهو يطوف ، وتخرج اليه فى الطواف ترقبه من بعيد ، وتقبل فتاة أخرى تطوف فتعطش وتطلب منه أن يسقيها ، وتغار مى ويفشى عليها . . فالمصادفة اذن ليست عفوية وانما هى مصادفة تتحكم فيها ارادة أخرى ، لعلها ارادة الآلهة الذين جعلوا من رجب شهرا أصم ، ولعلها ارادة القدر أو القوة الكبرى التى تدخلت لحظة اتفقت ارادة البشر على اسعاد الحبيين . . فحين اتفق الجميع على نهاية سعيدة لقصة الحب يحل فجأة شهر رجب كالقدر ليمنع هذا الزواج شهرا كاملا ، يترك فيه الحبيين تحت رحمته تهما ، وتحت رحمة قوى الشر تفرق بينهما . .

وليس من عجب اثناء الطواف أن تعطش ( رقية ) ، ثم ليس من عجب لعربية من أسرة أسياذ مكة أن تحتشم أن تقف لأهل السقاية وسدنة البيت ، ثم ليس من عجب حين ترى ( مضاضا ) يطوف أن تسأله جرعة ماء ، فهو صغير وهو من بيت كبير ، ثم هو آخر الامر أحد أفراد هذه الأسرة السيدة . وقد يمر كل هذا فى سهولة ويسر دون أن يخلف أثره عند ( مى ) لولا أنك تعلم من كثير من القصص ، بل ومن بعض الشعر ، أن الطواف كان عند الكثيرين من شباب الجاهلية مجال لقايا المحبين ومناجاتهم من بعيد ، فلا عجب اذن أن تغار (مى) وأن تسقط مغشيا عليها وقد أصاب قلبها سهم الغيرة . . فالمصادفة هنا ليست عفوية وانما هى تكاد تنبنى على أسس سليمة من واقع حياتهم

ومعتقداتهم ، والارادة التى تدخلت هنا لتبدأ عهد القطيعة بين  
الحبيبين وترسم الفاجعة التى ستنهى قصتها لها ارتباط كبير  
بآلهة العرب وتقاليدهم الدينية .. وكما تدخلت هذه التقاليد  
العربية فى رسم اطار الفاجعة فهى تتدخل كذلك فى دوائعها  
وتطورها ، فغيرة ( مى ) ليست غيرة محبة على حبيبها وحسب ،  
وانما هى غيرة عربية من عربية مثلها ، غيرة لها علاقة بالأحساب  
والأنساب .. وأسمعا تحكى لأبيها القصة فتقول له ( يا ابيه  
ان مضاضا ابن عمى دعا قلبى فأجابه فلما أجابه تذف الهوى  
خلف النوى ، رأيتة يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ففارق  
روحى جسمى بأسرع من طرفئة عين ، ثم تداركت أمرى .  
ورأيت أنه بدل حسبا بحسب وخطرا بخطر ، ولم يبلغ والله خطر  
أنبهلول مهليل بن عامر ، ولا رقية بنت البهلول ميا بنت مهليل  
بن عامر .. )

فالمسألة لا تقتصر على حب وغيرة ، وانما هى تتعداها الى  
مفاضلة بين الأنساب .. ومى حين تغار تستدعى فى الحال  
عصبيتها الجاهلية ، وتعقد المقارنة بين مكانها ومكان رقية ،  
وبين مكان ابيها ومكان ابي رقية .. وبهذا تصبح غضبتها غلبة  
محبة مهجورة ، وغضبة عربية تتعصب لحسبها ، وتحسب أن  
مكانها فى المجتمع العربى قد أهين حين فضل حبيبها عليها فتاة  
أخرى تعدلها حسبا ونسبا ..

وهكذا تتجمع العوامل ، بعضها ينبعث من طبيعتها كإنسانة  
تحب وتغار ، وبعضها ينبعث من طبيعتها كعربية تثور

لكرامتها وتغضب لمكانها وخطرها .. ثم يأتي العامل الثالث الذى يذكى النار ويصل بالفاجعة الى قمتهما ، ذلك هو الحقد الذى ينفث سمومه ، فطبيعى ان فتاة كمي لها اكثر من عاشق يحبها دون امل ، ومن الطبيعى ايضا ان يكون احد هؤلاء العشاق ( قبيسا ) الذى هو من رهط حقير فى جرحم يتسلل وراء ( مى ) فى الطواف يسعى عله يراها ، فرأى ما حدث كله ، واستغل حقه وضعته لينسج قصة وهمية يدخلها على ( مى ) لتزيد من نار الغيرة ، وتشعل لهيب الغضب .. فهو يدس عليها حكاية حب موهوم ، بل هو يدس عليها شعرا غزلا يتبادل حبيبها ( مضاض ) مع ( رقية ) هذه التى سقاها فى الطواف .. وكانت ( مى ) كما رأينا فى حالة نفسية تساعدها على تقبل كل ما يقال لها .. وهكذا يصل الأمر الى نهايته ، وتغضب الغضبة الكبرى التى تعزم بعدها على الرحيل بعيدا عن مكة وعن جوار مضاض ، وهكذا ايضا يغضب لها أبوها فيحزم الرحال مغادرا المكان الذى اهينت فيه ابنته ..

وحين يبلغ الأمر حبيبها مضاض يركب فرسه ويأخذ سيفه يريد قتل قبيسى ولكن قبيسى يهرب فما يبين . والقصة لا تلحق به عقابا ، فهو واحد من أدوات ، وليس أخطر الأدوات التى استعملها القدر ليفرق بين الحبيين .. وهما — على أى حال — لا يواجهان هذه القوة التى تحيك حولهما المأساة بقوة مادية ، وانما هى أشياء تتعلق بنفسيهما وما انطوتا عليه من حب ..

ويلقى ( مضاض ) ( ميا ) ويحاول ان يفهم الحكاية ، وان يفسر موقفه ، ولكنها لا تسمع . . بل « زحفت غضبى وتمادى الحى للرحلة ومضوا وأفترق الحى من سفح الجبل » . . وهنا تشهد صورة عربية تلمحها تتردد في الشعر الجاهلى بصفة خاصة ، فمضاض يغير زيه ويركب ناقته فيتبعه خليلان من بنى عمه ركبا في اثره حتى لحقاه فقالا له « يا مضاض خلعت تاج الملك لطلاب الهوى » ، قال لهما غلب الهلع التجلد والجزع انصبر ، والهوى حاكم والقلب محكوم عليه « فسارا وراءه يستمعان شعره معا ، ويرقبانه وهو يلحق بركب ( مى ) ، ويتعرض لركبها محاولا أن يثنيها عن رحلتها فيفشل مرة أخرى . . والخليلان هنا صورة من صور المجتمع العربى ، أو هما صورة من صور شباب هذا المجتمع . ونحن نلمح وجودهما في مطلع معظم القصائد الجاهلية اذ يخاطبهما الشاعر دائما يشكو لهما الهوى والبين والفرق . وربما نبعث فكرة الخليلين هذه من هذه الأسطورة بالذات ، وربما كانت شيئا طبيعيا في حياة الشباب العربى كلما قلنا . . على اية حال يرافقه خليلاه هذان وهو يقسم ان لا يشرب بعدها ماء ابدا ثم يرقبان موته ويأخذ أحدهما رأسه في حجرة حين يموت ، وهما بعد ينقلان ما قال من شعر ، وما همس به ساعة مات . .

ونقف وقفة طويلة عند هذه الوسيلة التى اختارها للموت اعنى العطش . . واختيار هذه الوسيلة أولا يتفق مع طبيعة البيئة العربية الصحراوية اتفاقا تاما ، ويكاد يبلغ الصدق الفنى في هذه

القصة ذروته عندما يجعل العطش المحور الرئيسي في الفاجعة . .  
فالعطش هو الذى جعل ( رقية ) تطلب الماء من ( مضاض )  
فتراهما ( مى ) ، والعطش هو العقاب الذى فرضه ( مضاض )  
على نفسه ، وحين تعود ( مى ) وتعرف أنها كانت واهمة فيما  
بلغها عن ( مضاض ) وأنها تجنت عليه وظلمته فهى لا تختار إلا  
( العطش ) لتموت نفس ميته ، وتدفن في نفس مكانه . .

والماء يلعب في حياة العربى دوره الحقيقى ودوره الرمزي . .  
فهو حقيقة ملموسة تعيد اليه الحياة حين تطول به الرحلة وينضب  
ما معه من ماء ، ثم يوشك على الهلاك وسط الصحراء القائظة  
الجرداء . وهو رمز للأمان وبلوغ الهدف حين تنتهى به الرحلة  
الى واحة ، او قرية ، او مضرب خيام ، يجد عنده حاجته من  
الماء ، ويجد عنده حاجته من الامان ، ويحقق عنده هدفه من  
رحلته . . بل ان حياة العربى البدوى كلها رحلة من اجل الماء ،  
يعيش هو عليه ، ويجد عنده الكلا لماشيته ترعاه . . وهو حين  
يجده يستقر به المطاف ويحط عنده الرحل ، الى أن ينضب ، فهو  
يقوض خيامه ويقود أغنامه بحثا عن ماء جديد . . فالماء عند  
العربى رمز لأشياء كثيرة . وهو في هذه القصة بالذات رمزا  
لأهل الذى تحطمت عند صخرته حياة حبيبين ، صنع لهما القدر  
وطبيعة الحياة العربية وتقاليدها هذه النهاية الفاجعة . وحين  
يموت مضاض عطشا إنما يرمز الى ما أخفق فيه من بلوغ لأمله  
وهدفه ، وحين تموت ( مى ) عطشا إنما تشير الى ما ملأ حياتها  
من جذب وخيبة واخفاق .

فالقدر العربي الذى جعل من رجب شهرا أصم بدأ  
الفاجعة ، والطبيعة العربية التى جعلت من العطش فاجعة  
تحطم حياة العربى أنهت القصة .. وبينهما يقف الانسان العربى  
شهيدا لا يملك الا الحب والوفاء .. ومأساة العربى هنا فى بحثه  
عن الأمان ، وبحثه عن الاستقرار ، وبحثه عن الحب تتضح  
فى جلاء لا تحجبه التفاصيل ، ولا يخفيه ما يدور على السنة  
أبطال هذه المأساة من شعر أو حوار ..

أما شخصيات القصة فنماذج بشرية تلعب بها يد القدر ،  
ولكنها أيضا نماذج عربية لها سماتها الخاصة وتقاليدھا التى  
تتحكم فى حياتھا .. ( فمى ) الفتاة التى تحب فى عفة ، وتواجه  
حبھا فى شجاعة وصراحة يصل بها الحب الى حد أن تخرج  
فى الطواف ترقب حبيبھا من بعيد ، تمتع برؤيته عينیھا وقلبھا ،  
فترسم بذلك صورة من الحب الجارف العنيف الذى لا يعرف  
الصبر والاناة . ولكنها حين تصطمم بوهم الخيانة ، فتاة عزيزة  
لا تعرف أمام عزتها شيئا حتى ولا الحب ، يغشى علیھا وسط  
الحجيج ، ثم هى راحلة لا شك عن المكان الذى أهينت فيه  
كرامتها ، ثم هى معرضة عن توسلات حبيبھا وشعره وأفكاره ،  
هى قوية كل القوة حين تحس أن كرامتها فى الميزان ، وكرامتها  
عندها ترجح كل شئ حتى الحب .. ثم تنزاح الفشاوة عن  
عينيھا فاذا هى ضعيفة كل الضعف أمام حبھا ، اذا هى تسعى  
الى مكة ، فما تسمع خبر وفاة حبيبھا حتى تهرب الدموع من

عينها اثر الصدمة القاسية . . ثم هى امام حبها تضحي بكل شىء حتى بحياتها ، وهناك الى جوار قبر حبيبها تموت عطشى ، كما مات فى عزة واصرار ووفاء . .

هذه الصورة لى كما ترى تختلط فيها عواطف المرأة بتقاليد العربية اختلاطا كبيرا يحقق لها أصالة وبقاء ، وصدقا فنيا حقيقيا . . وما قلناه عن ( مى ) نقوله عن ( مضاض ) فهو محب عفيف يصون مئزره عن حبيبته ويسرع بخبر حبه الى الملك ، ثم هو يخضع لتقاليد العرب فينتظر انصرام شهر رجب ، فاذا ما علم بأمر قبيلى أخذ سيفه ليقتله فى عزم العربى وغضبته ، وفى فتوة وفروسية صادقة ، ولكنه امام مى محب متخاذل ، يتبعها باكيا نائحا ، يحكى لها قصة وفائه ، وتأبى أن تسمع اليه ، فيأبى عليه شرفه وتأبى عليه أنفته ، الا ان يثبت لها صدقه ، والثمن هو حياته نفسها . .

ومن هذه القصة تستطيع اذن أن تخرج بصورة متكاملة للخلق العربى والتقاليد العربية لعلها تختلف الى حد كبير عما أصر عليه الدارسون من صورة مشوهة باهتة . .

ونظرة الى حوار القصة وما جاء فيها من شعر تبرهن لك فى وضوح أن لغة الجاهليين لم تكن سجعا وقعقة واغرابا . . ستقول ان هذه القصة دونت فى عصر متأخر عن حدوثها المفروض ، واقول لك انها دونت فى العصر الاموى على أرجح الفروض ، فكاتبها نفسه قد مات فى عام ١١٠ هـ كما تعلم . .

فمعصر التدوين قريب جدا من العصر الجاهلى ، ولغته تكاد تكون اقرب الى اللغة الجاهلية من لغة المتأخرين الذين روى الشعر الجاهلى والخطابة الجاهلية . . ولست أزعـم أن هذه اللغة هي لغة العرب في الجاهلية ، وانما أزعـم أنه كانت هناك لغتان ، احدهما عرفها محترفوا الكتابة من أصحاب السجع والغريب ، والثانية هي هذه اللغة السهلة العذبة الشعرية التي عرفها أصحاب القصة . . وأزعـم أن هذه اللغة هي اللغة الأقرب الى أن تكون هي لغة الاستعمال المتداولة ، أما هذه الصورة اللغوية الغريبة التي ينقلها الينا الشعر أو تنقلها الينا الخطب وسجع الكهان ، فأحسب أنها لغة مصنوعة متكلفة يتعمدها أصحابها تعمدا ، ويقصدون اليها قصدا ، فغدت علما على مجالات استعمالها . وان كانت ولا شك ليست لغة الحياة العادية . كما أنها ليست بالتالى المظهر الفنى لهذه اللغة ، لأن هذا المظهر الفنى يتضح فى هذه القصة وغيرها . وانما هي اقرب الى أن تسمى بالمظهر الصناعى المحبر لهذه اللغة ، وفرق بين الفن والصناعة . .

وبعد فأحسب أن قصة مضاض ومى لم تنقل الينا فى كتاب التيجان كاملة ، بل أحسب أنها اختصرت اختصارا ، فأنت تلمح فيها مواضع كثيرة للحوار تروى رواية ، بينما ترى من سرده أنه استعمل الحوار فى أكثر من موضع ، وساءرد بك الى جزء من رواية وهب للقصة فهو يقول :

( قال أبوها : فمالك يا بنية ؟ قالت له : انصدع قلبي صدعا  
لن يلتئم بعدها صدعة ، قالت يا أبة ان مضاضا ابن عمي دعا  
قلبي فأجابته ، فلما أجابه قذف الهوى خلف النوى ، قالت له :  
رايته يلاحظ رقية بنت البهلول وسقاها ماء ، ففارق روى جسمي  
أسرع من طرفة عير ) .

فأنت تراه هنا يذكر نصف الحوار دون أن يورد نصفه  
الآخر ، ولا ريب أن القصة الكاملة يتكامل فيها الحوار ، وتحكى  
ردود أبيها عليها كاملة .. ولعلك تعلم أنه لم يقصد الى ايراد هذه  
القصة قصدا، وإنما هو حكاها وسط حكايته عن الحارث بن مضاض  
الجرهمي وغربته الطويلة .. والواقع أن جزء كبيرا من حبكة  
هذه القصة الفنية يعود الى الراوى نفسه ، فإلراوى روح هائمة  
فى الجزيرة تسير فى طريقها الى الموت بعد غربة ثلاثئة عام ..  
فالجو العام الذى تسرد فيه القصة كله قتمام يوحى بهذه النهاية  
الفاجمة ، بل كله يرمز الى هذا الذى حاولنا أن نستخرجه من  
مصراع العاشقين بالعطش ، يرمز الى الضياع .. فكأنا قصة  
مضاض ومى تكملة طبيعية لقصة الحارث الذى ضاع فى عمره  
الطويل بين جبال الجزيرة وفلواتها الى أن يلتقى باياد بن نزار  
وهو يعود بابله الى مكة فيحمله فى رحلة النهاية ، رحلته الى  
القبر الذى سيدخله باختياره ، لأن أجله قد حان ، ثم يموت ..  
وفى الطريق يمر على جبل أبى قبيس وموطن الموت ، فيشرح لاياد  
قصة هذه الأسماء التى أطلقت على هذه المواضع فتكون قصة  
مضاض ومى ..